

أسطورة قابيل الأدب العربي

د/ مـ دة عتيق

جامعة سوق اهراس

قابيل الأسطورة:

قابيل أوفاء اسم قد قدم البشرية نفسها، يرحل بناء دهايز الذاكرة البشرية
إثا مأساة شهدها الإنسان عقب طرد آدم من الجنة، إيا حادثه قتل قابيل أخاه هابيل
مع سبق الإصرار والترصد لأنه نازعه "الأثني" المكيها، وارتضاها لنفسه، تقول
الأسطورة «إن حواء كانت تنجب كل توأم ولدا وبنتا، فكان كل ولد لا يتزوج أخته
الولدت معه، وإيا يتزوج فتاة التوأم الآخر، وقد رد قابيل على هذه الشرائع لأن الفتاة
الولدت معه كانت ألي من الالولدت مع هابيل، ومن أراد أن تجزها لنفسه، ويا
احتكما لأبيهما طلب منهما أن يقدما قربانا، والذي يقبل قربانه يتزوج من اميلة،
فتقبل القربان هابيل، واغتاط قابيل، وقتل أخاه الذي حرمه من اميلة»⁽¹⁾.
تش الأسطورة بشكل مباشر إ أن اراءة هي أصل البلاء والشر، فكانت
حواء هي السبب ارتكاب الإنسان اطيئة الأو، وطرده من الفردوس، وكانت
الأخت اميلة هي الدافع لارتكاب أول جرة بشرية على وجه الأرض.

قابيل التوراة:

تبنت التوراة أسطورة قابيل تفاصيلها العامة وخطوطها العريضة، وإن غيرت
دوافع ارة، فصاغت القصة بعبارات بسيطة ومؤثرة، حكمت فيها كيف تقدم الأخوان إ
الرب الإله بقربان، فتقبل يهوه قربان هابيل الراعي، ورفض قربان قابيل الفلاح إ أثار
حفيظة هذا الأخ فسفك دم أخيه، وواجه يهوه بالأمر، يتملص قائلا: أحارس أنا
على أخي؟ لكن سرعان ما تتكشف اقيقة، فتقرر السماء أن يعيش قابيل شريدا طريدا

طوال حياته، «فقال الرب: ماذا فعلت؟ إن صوت دم أخيك يصرخ إني من الأرض، فمنذ الآن لن عليك لعنة الأرض إني فتحت فاه، وابتلعت دم أخيك (...) وتكون شريداً طريداً الأرض»⁽²⁾ ويستعظم قابيل العقوبة، فيحكم يهوه عقوبة كل من رؤى على إيذاء قابيل بعد أن وهب علامة مظهر على من يلقاه أن يقتله.

استقطبت الأسطورة اهتمام علماء النفس والاجتماع والفلاسفة، وذهبوا تأويله مذاهب شتى، فرأى فيها البعض سيداً لثيمة "اللغة" حيث يتحمل الأبناء جريرة الآباء، ويتوارثون الطبيعة إني أن يرضى القدر أو الإرادة العليا، فكأن جريرة قابيل هي عقاب لآدم على خطيئته على غرار ما وقع لأوديب الذي حلت عليه اللعنة، ودفع بن أخطاء أبيه.

ويفسر بعض الدارس أسطورة قابيل وهابيل نفسياً تلفافاً، إذ رأوا فيها سيداً للصراع، مظهر معيشي متباين: الفلاح / قابيل، والرعي / هابيل إني يفرضه كل مظهر من سلوكيات ونظم أخلاقية معينة، اتضحت جلياً اختلاف عقلية الأخوين العدوين اختلافاً يصل إني حد التناقض، فتمثل قابيل عقلية الفلاح نكتته، وذكائه، ودرايته، وثل هابيل عقلية الراعي بتواضعه وسذاجته وبساطته ولا أدل على ذلك من إني اشتق من إني بل أي قلة العقل وبطء الفهم، وبقدر ما يبدو هذا التأويل متماسكاً ومتماشياً مع منطق الأسطورة إني أنه يطرح إشكاليات كثيرة للجدل، منها إذا كانت الأسطورة انتصاراً للرعي بنظمه وأخلاقه، وفلسفته فلماذا قضي على هابيل بطريقة بشعة قبل منتصف النص تقريباً؟ وإذا كانت القصة ترفع من شأن الفلاحية نظومتها القيمية، أفكان من الضروري أن يلغى تمتع الرعي إلغاء دمويها؟ فهل تفوق مظهر يستدعي بالضرورة إعدام مظهر آخر رد أنه يغيره؟

قابيل القرآن:

حظيت هذه الأسطورة باهتمام معتد النص القرآني، إذ أشار إني تفاصيل القصة دون ذكر أسماء قوله تعالى: «واتل عليهم نبأ إني آدم باقى، إذ قربا قرباناً، فتقبل من أحدهما، ويتقبل من الآخر، قال: لأقتلنك، قال: إني يتقبل إني من اتقى، لن بسطت إني يديك لتقتل، ما أنا بباسط يدي لأقتلك (...) فطوعت له نفسه قتل

أخيه فقتله، فأصبح من الأسرى، فبعث غراباً يبحث الأرض له كيف يوارى
سوءه أخيه، قال: يا ويل أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءه أخي،
فأصبح من النادم (المائدة 27-32). نلاحظ أن النص القرآني أسقط ذكر دافع
المرءة سواء كان أنثوى (الأخت الميلة) أو اقتصادياً (النمط العيشي)، وجعل التقوى
معيّاراً لقبول القربان، كما أنه أضاف على التوراة حكاية الغراب ليعمق مأساة
اللحظة الدرامية > يتعرف الإنسان على الموت لأول مرة.

فابيل التراث العربي / إشارات عابرة:

يعا أقدم نص وقع به أيدينا أسطورة فابيل، وهو قصيدة للشاعر العباسي علي
بن جهم، يؤرخ فيها للخليفة، حيث يقول:

م - سأل القاصد قصداً ق
أخ - وم من الثقات
إن ا يف - عل ما يشاء
أنشأ - لمق آدم إنشأ
وم - ن له القدرة والبقاء
وقد م - ن زوجه حواء⁽³⁾

ويستمر صياغة قصة طيئة > يقول:

«ثم تسلى وأحب النسل
وولدت ابنه فسمي فاينا
فحملت حواء منه
وفاين من أمره ما عاينا
فشب هايل وشب فاين
و يكن بينهما تباين»⁽⁴⁾

تتوقف القصيدة عند هذه النقطة، وقد علّق الأستاذ خليل مردم بك قق
الديوان بأن هذه الأبيات جزء من فاقة قصيدة مطولة تاريخ المفاء العباسي لعل
بن جهم ضاعت مع ما ضاع من شعره، يدلنا هذا التعليق على أن فابيل قد ورد عرضاً
القصيدة ضمن سلسلة أرى التاريخ للنص الذي يؤرخ للخلفاء العباسيين دون أن
يكون نية الشاعر أن مله أي نية خاصة، ونلاحظ أن الشاعر أورد الأسطورة

بالتسمية التوراتية بدل الصيغة الإسلامية . يؤكد اتكاء الشعراء العرب القدامى على الإسرائيليات استلهاهم اتواضع للأساط ، وقد بدا هذا النص الشعري أقرب إ النظم التاربي منه إ استلهاهم الأسطورة، وتلها رؤية وأداء أي أن التوظيف هنا يتجاوز هذا البعد اللفظي،

كما أشار أبو العلاء اعري إ قابيل بشكل عابر لزومياته > يقول:

«دع آدم لا شفاه ا من هبل يبكي على له ا قتل هايبلا

ففي عقاب الذي أبداه من خطأ طلنا ارس من سقم عقايبلا»⁽⁵⁾

يتب اعري فكرة ا طينة اتوارثة، ويرى أن البشر سليلو القتل وزناه ا ارم، فكلنا من آدم، وآدم هو أبواخوين، قتل أحد ا الآخر لكي يتزوج أخته، وإذا كان هذا أصل البشر فلا عجب أ م - نظر اعري - شر خلف لشر سلف.

قابيل الشعر العر ا عاصر:

أ الأديب العر العصر ا ديث إ الأساط لتحقيق أغراض فنية وفكرية متعددة، كان أو ا أن يتخذ الأسطورة فناا وفائيا ميه من ء الرقابة، ويدع مسافة ازية بينه وب السلطة، إذ اختبأ الأديب وراء كنانة الأسطورة ورشق من خلا ا أعداءه وخصومه بسهام الرفض والاحتجاج، وكان ثانيها رير النص الأد من أسوار البلاغة القدة ال تقوم على السجع والزخرف اللفظي و بالغة واختبار الذاكرة حفظ الغريب، أضف إ ذلك كسر النمط ا طي للسرد ا ديث الذي ينتسب شرعيا أوبالتب للسرد التباعي الس الشعبية و اكايات التراثية، ونالت أسطورة قابيل بعض الاهتمام لى شعرائنا وروائينا العرب، وكان الصدارة الشاعر العراقي بدر شاكر السياب الذي وظف قابيل عدة نصوص منها "رؤيا فوكاي"، حيث يقول:

«قليل باق وإن صارت حجارته

سيفا وإن عاد سيفه ا ذم

ورد هايبيل ما قضاه بارئه

عن خلقه ردت باه الأمم

يطرح النص موضوع "أخ" وهو شخصية شاذة أفرزها الاضطرابات السياسية الأوطان العربية، وهو يضطلع بدور مراقبة المواطن واستقصاء أخبارهم ورصد سكنهم، والإيقاع بهم، وبعبارة أخرى، إنه شخصية تعيش من مصائب الغربة، وتستمد وجودها من الإيقاع بالآخر، ولكي ترصد صوت ضميرها الذي يؤنبه على ما يفعله بأخيه المواطن فإنه يعلن صراحة عن دوره ليضع جداراً بينه وبين الآخرين، فلا يستطيع أن يجهلهم لأنه لو فعل ذلك مات، وقد يسأل أين أخوك المواطن / الغريب؟ فإنه لا يستطيع أن يهرب: ألعلي حارس على أخي؟ كما أجاب فايل الأسطورة لأنه فعلاً موكل برأسهم لكن لندمهم لا مائتهم، إنه شخص يستمد كيانه ووجوده من قتل أخيه المواطن قتلاً جسدياً ومعنوياً.

قصيدة "أبي عبد الغريق" يستبدل السياب "أطلس" بقايل > يقول:

«وما شاء شديها فايل

فليتك > هزأ وصل الإعصار

(لا دريا ولا فإلا فيها)

شهدت الأعداء الغض

وليتك فارمر > تنفس السحر

فقص على سرب السكة المدود أمراً

تعلق مايتهم جسم صد النظر

عليه أرح بعد أرح بعد أرح أكداساً

ليهوي جسم "حفصة" لباساً فوق النجيع دماً وأتراساً⁽⁸⁾

غير السياب بعض تفصيلات الأسطورة اليونانية إلا تزعم أن زوس حكم على أرماد أطلس أن حمل السماء على كاهله إلى الأبد، واستبدله الشاعر بقايل للدلالة على أن الحضارة المعاصرة تقوم على الدم والعنف وإلغاء الآخر.

وحد السياب قصيدة "سفر أيوب" بذاته وأيوب الذي هذه الأرض والضعف، فيطلب العون من أخيه الإنسان / فايل، فيصيح مستغيثاً:

«فهل استوقف ا طوات ؟ أصرخ أيها الإنسان
أعني ... يا أنت ... يا فايل خذ بيدي على الغمة
أعني ... خفف الآلام عني واطرد الأحران»⁽⁹⁾
يغدو فايل هذا النص "القشة" ال يتعلق ا الشاعر الغريق آلامه وأحزانه
اولا أن يستبصر نورا من الأمل وهو لندن لا د رفيقا من البشر يساعده و فف
من ثقل أمراضه وعجزه إحساسه ا اء بالوحدة والافتقاد.
يسقط الشاعر أسطورة فايل على ومه الذاتية ومعاناته الشخصية قصيدة
أخرى عنوانا "جيكور شابت" فيصور شبابه قائلا:
«يا صباي الذي كان للكون عطرا وزهوا وتيها
كان يومي كعام ... تعد ا مسرة
فيه نبضا لقا ... تفجر منها على كل زهرة
كان للأرض قلب ... أحس به الدروب
البسات كل ر يرويه»⁽¹⁰⁾
إن فترة صباه العطرة السعيدة هي ا عادل ا موضوعي يلاذ الكون حيث تتضح
الصور الأو با وا مال وا ق، ولا تنقلب هذه الصفحة ا ميلة من ااضي الأز
إلا مع ميلاد فايل حيث يتفجر الشر متناميا حياة الكون/ الشاعر بعد انقضاء فترة
ااضي ا ميل، إذ سيتلقى الشر الكث مستقبله الآ .
و قصيدة "قافلة الضياع" يسقط السياب أسطورة فايل على فضية فلسط
ونظرة الضم الإنسا إليها، إذ يقول:
«فايل، أين أخوك؟ يرقد خيام اللاجئ
السل يوهن ساعديه، وجثته أنا بالدواء
و اوع لعنة آدم الأو وإرث ا الك
ساواه وا يوان، رماه أسفل السافا
ورفعته أنا بالرغيف من ا ضيض إ العلاء»⁽¹¹⁾

يتحدث الشاعر على لسان قابيل الذي برأ نفسه من جرة قتل أخيه مدعياً أنه استخلصه من براثن أرض وادع، وقابيل هنا هورمز للضمم العاوي الذي رفع عن ذاته قتل اللاجئ الفلسطيني لإقامة وكالة الغوث الدو، فكان أمر هؤلاء هو أمر غداء ودواء فحسب، وليس أمر كرامة وأرض وحق، إن قابيل هنا يقتل أخاه قتلاً دموا فحسب بل قتله مغنوا وحوله من صاحب أرض إلى متسول يستجدي العا غداء ودواء، لقد مثل السياب وقع الفاجعة ضم العا مؤلفاً واقع اللاجئ الفلسطيني وواقع الأسطورة ال بدت منحدره من قلب السياق ورحم التجربة ال عاناها الشاعر بوصفه عربياً وشاعراً.

وبعيداً عن هذه الصورة انددة لقابيل الأسطوري، يطالعنا نص "ثلاث قصائد من فلسط" للشاعر عبد الكر السبعواوي يطرح فيه رؤية أخرى، إذ يقول على لسان قابيل:

«هابيل على كتفي ما أثقله
هم قتلوه، ولكن أنا أله»⁽¹²⁾

نلمس تعاطفاً من الشاعر عبد الكر السبعواوي هابيل الذي ثل الإنسان الفلسطيني الذي مل على عاتقه ثقل مأساته وقضيته ال تكن له يد فيها، فهو مل شرف العرب وكرامتهم > أم ينفضون لأيديهم من كل مسؤولية إزاءه وكأن القضية قضيته وحده، نلمس هذا التوظيف اتميز لشخصية قابيل نوعاً من التأثير بالتوظيف الرومانسي لأسطورة قابيل يتمثل الاز له، والتعاطف مع مأساته ال يكن مسؤولاً فيها على وبذكرنا بقابيل الشاعر الإليزي اللورد بايرون قصيدته الشهة "قاي" ال تع على مأساة الميقة اعتربها من قلق وشك وردغ دود. قصيدة "قابيل النفطي" يطرح الشاعر عبد الوهاب زاهدة صورة جديدة ومبررة لقابيل، فهو العر الذي قاتل أخاه بالأمس من أجل بئر ماء، ويقاتله اليوم من أجل بترول:

«قابيل شيخ القبيلة وأم رهط
قد عاش طوال حياته ما فك خط
تر داحس والبسوس

وحكاية النعمان مع ملك الوس
وأاده ر ولعط
وبلاده جذب وفحط
ولأجل شاه
اعتاد أن يغزو أخاه
ح أأاه ا ط كاز ونفط
فاستل سكة الذهب
واندار يذبح العرب
ومضى يقطع ذاته
وحره وبناته»⁽¹³⁾

يبدو فايل كهلا معمما بعقلية شيخ قبيلة عرب يستحل دم أخيه من أجل بئر
أوشاة يتدفق فجأة البترول تحت أقدامه، فيبيع تروسه وسيوفه وفؤوسه، وندماله
وفلوسه وضي يقاتل بالدولار أحبابه وأترابه، وييله وترابه، إنه شخصية مرضية معقدة
نتيجة انتقال الفجائي من البداوة إلى التمدن:

«فايل أضحي يائسا ومعقدا
وبعش سر دابه متعددا
فهو الضحية وهو أتياب الردى
هو جنة لكنه يا سدى
فقد ازدوج
فايل هذا العصر ليس له فرج
أعماقه عقد تراها عقد
جيده قيد وحيل من مسد»⁽¹⁴⁾

وإذا كان فايل الأسطوري اغتال أخاه، فإن "الشيخ" فايل النفطي يقتل
أخاه فحسب بل اغتال ذاته وظل يلقي الميخ رفاته، فمن ذا يذيع وفاته؟

يوظف الشاعر "صلاح التكمه جي" الأسطورة قصيدته "قاييل يفتك بعز العراق" بشكل تعددي فهو عدو الإنسانية نارة، وعدو العراق نارة أخرى:
«قاييل ت

شر يتطايير كل زمان ومكان

قاييل ينته

كره لا يعرف حدود الإنسان

قاييل يعود قدّه

قاييل الإرهاب يتربص (...)

أيقتل قاييل فكر عز الدين

كلا وألف كلا مادام القلم ولن موت

أيقتل قاييل روح ا ب لعز الدين؟

كلا وألف كلا مادام القلب ولن موت

أيسرق قاييل روح الوحدة لأ ياس ؟

كلا وألف كلا مادام العراق لن موت»⁽¹⁵⁾

يبدو قاييل هذه القصيدة أكثر فتكا وبشاعة من قاييل الأسطوري، و الوقت نفسه تبدو علاقته الراهنة باييل أكثر توترا ودرامية لأن الشاعر خلع عن هايبيل لباس ا نوع والعجز وابل، وألبسه ثياب التحدي والإرادة ليكون مستوى قوة غره / قاييل الذي نعته بصفة عصرية وليدة القرن العشرين وهي "الإرهاب" فالشاعر لا يريد أن تنتهي قضية الصراع ب قاييل وهايبيل الراهنة بشكل مأساوي كالذي حدث الأسطورة بل يراهن على أن هايبيل / العراق هو الذي سينتصر آخر ا طاف. تعطي هذه الروح التفاضلية دفعا جديدا لأسطورة قاييل حيث ا ا عن ا ط ا أساوي الذي ر ته الأسطورة وحذا حذوها معظم الشعراء العرب.
اول أمل دنقل قصيدته "الوصايا العشر" أن لقي مصاة ب الأخوين
منعا للجرة وإرافة الدم الأخوي:

«لا تصا
 ولومنحوك الذهب
 أترى > أفقاً عينيك
 من مكا ما أثبت جوهره
 فهل ترى ؟...
 هي أشياء لا تشتري
 بـ أخيك وبينك ذكريات الطفولة
 وحسكما فجأة بالرجولة (...)
 هل يصدمي بـ عينيك ماء؟
 أتتسى ردائي الملوخ بالدماء؟
 إاا رب
 ... قد تثقل القلب
 خلفك عار العرب
 لكن لا تصا ...
 ولا تتوخا رب...»⁽¹⁶⁾

يصردنقل ء لازمة "لا تصا " أن حول دون وقوع الأساة بأن ذر قابيل من
 مغبة مصاة الآخر / اليهود، وقتل أخيه الفلسطيني مقابل أحلام وية حول الأمن والسلام
 وادنة، اطب الشاعر قابيل بلهجة أخوية، وزمة يمة بعيدا عن التنديد الذي سناه
 النصوص السابقة اولا أن ينفي عن قابيل صف الإجرام والقتل الفطري، واطب فيه
 اس الأخوي عله يقنعه بالعدول عن جرمته الا يدفعه إليها أبناء العم ازعومون:

«سيقولون
 جئناك كي قن الدم
 سيقولون
 ها نأبناء العم

العمومة فيمن هلك
 قل م إ م يراعوا
 وأغرس السيف جهة الصحراء
 إ أن يب العدم
 إ كنت لك
 فارسا
 وأخا
 وأبا
 وملكا
 لا تصا «(17)

فايبل أمل دنقل ليس سفاحا ولا رما بالفطرة، بل ملك ساذج تصور أنه يستطيع أن يشتري وردا وسلاما وأمنا من أبناء عمه إن نزع سيف أخيه هايبيل وسلّمه لأبناء العم، بعبارة أخرى إن فايبل - هنا - ليس شخصية شريرة بطبعها بل هي بشر واقعي يقع خطيئة ناشئة عن الضعف الإنساني وسوء التقدير اللذين، يسوغان سقطته الأساسية، ويسوغان أيضا الشعور بالشفقة والوفاء أكثر من لقان القدر والعداوة بسبب موقفه إزاء أخيه.

يكتب "شاذل طاقة" قصيدة من مس مقاطع عنوانها "فايبل الدملماجة" (والدملماجة بئر مهجور إحدى ضواحي الموصل يتكاثرون فيها أهل المدينة)، ويقول على لسان هايبيل:

«وأخي فايبل يفتش بالأطمار
 عن سر الثوار
 عن سكر يغمدها قلب الصورة
 عن حبل ينفع شق القمر (...)
 هايبيل مات

هابيل مات
وأووا التل للشيطان
و يبق منه من دم الإنسان
إلا فتات
إلا فتات»⁽¹⁸⁾

لا رج دلالة قابيل هذا النص عن الصورة العامة التي رتتها الأسطورة
والا تنبأها الكثر من الشعراء العرب المعاصرون، فقابيل هو رمز لكل سفاح، ولكل
قاتل ومعتد، فهو وذج لكل جان ويقابله هابيل رمز التضحية، وتبدو صورة قابيل طيبة:
قاس، ظا، عدوا، دموي... فهي صورة هلامية، مطلقة تفتقد أية ملامح
خصوصية منبثقة من ربة الشاعر شاذل طاقة الشخصية.

تلف الأمر مع الشاعر "أ. د. مطر" قصيدته "الفتنة اللقيطة" التي يقول فيها:
«أثنان لا سواكما
والأرض ملك لكما
لوسار كل منكما
طوه الطويل
أ التقت خطاكما
إلا خلال جيل
فكيف ضاقت بكما فكنتما القاتل والقتيل
هابيل ويا قابيل
لوئ ذكركما كم التيل
لقلت مستحيل
من زرع الفتنة ما بينكما
و تكن الأرض - إسرائيل - ؟؟»⁽¹⁹⁾

يبدو أن د. مطر مستغرباً من وقوع الأساة التي بدت مبتورة الأسباب واهية الدوافع، فالملكية مشاعية، والأرض متاحة لما وُجد لها، فلا مجال للتطاحن والتقاتل خاصة أن إسرائيل توجد بعد، وهي التي عدها الشاعر "أفعى الإغواء"، ويبدو للوهلة الأولى أن د. مطر جعل إسرائيل مشجياً يعلق عليه جرائم البشرية، لكن بإعادة القراءة نلاحظ أن الشاعر يستسلم للشائبة الماهرة التي جعل قاييل جانبا وهابيل ضحية بل خاطبهما بلهجة واحدة ملؤها التأنيب ولهما معا مسؤولية ما حدث، وهذا ما خفف من زعة الإدانة النمطية التي توجه الغالب لقاييل.

يظل اسم الفيلسوف ينقل كاهل الشاعر العربي وهويستلهم أسطورة قاييل، فها هو الشاعر الدكتور جابر فميحة يقول قصيدته "على هؤلاء بشعري بكيث":

«أعيا البحث

وكأ قاييل مل جثمان أخيه

لكن

أغراب يبحث الأرض

يرى

أين أوارى يا عز الدين رفاتك؟

معدرة

لا أملك إلا أن أزحف هداة الليل

أصلوب

لأعود دكا أخمور

وأوارى جدران ان رفاتك

وأهيل تراب الموت عليك

ولا أمد أنفاسي بـ يديك

وأوسد الق السافل

جثمان الشرف العربي»⁽²⁰⁾

تنضح القصيدة مرارة وأسى على حال فاibil / الشاعر الذي ضاقت به الأرض، فلم يد مكانا يدفن فيه أخاه الفلسطيني الذي استلبت منه أرضه، فحرم الله التوارى فيه سواته من قبل أخيه العربي الذي بدا أكثر عجزا وسلبية من نظيره الأسطوري. تتجلى قصيدة "أخي فاibil" للشاعر صلاح السودانسة رقيقة بذات مؤنبة موجهة إلى كل قارئ يشك وجفاء أخويا أو قطيعة رية، فوظف الأسطورة من منظور إنسانا جعلها تصلح لكل زمان ومكان، فيقول على لسان هاibil معاتباً الأخ الما الغادر.

«أنا هاibil

طريح الأرض يلكر بنعليه أخي فاibil
و مسح ما بكفيه على شعري دما فانيا
ينقط من سلاح أخي على شفي وأجفا (...)
وكان ما ضمنا يوما ظلام الرحم
وكان ما ضمنا الاثث
ولا قربنا يوما
كجروين صغيين
حنان الصدر»⁽²¹⁾

جاءت القصيدة مفرغة من أي دلالات سياسية أو قومية، بل لمت نصا إنسانيا اطب غريزة الأخوة مستواها العائلي والإنسانا عموما، وهي تعبق عا العتاب والتودد أكثر من الاستهجان والتنديد، وذلك بفضل أسلوب الرقيق ولغتها السلسة.

فاibil الرواية العربية:

ل الرواية العربية ا عاصرة من نصوص استلهمت أسطورة فاibil وإن كان بشكل أقل بكثير من نسبة وجودها الشعر العربي ا عاصر مع أن الرواية لا تقل طواعية توظيف الأسطورة من الشعر بسبب خاصيتها السردية، وسعة فضائها النصي، وتقاطعها مع الأسطورة ذاتها أكثر من خاصة، وسكتفي هنا بالإشارة إلى

نص ، أو ما حديث وهو "أولاد حارتنا" لنجيب فوظ، وثانيهما معاصر وهو "نزيف الجر" لإبراهيم الكو .

كان توظيف قابيل "رواية أولاد حارتنا" عابرا ومقنعا إذ ورد باسم -م قدري مقابل سام / هابيل، وذكر الأخوان ضمن الإطار العام للرواية التي تعد تارة لرحلة الضم البشري، وهويقتل من استهداف الفطرة واستلهاام اللاشعورية إلى اتباع الأنبياء وأرسل والتذبذب بمبادئهم الروحية وجاذبية الطم ، وكان الصراع بين قدري و سام هوجزء من الصراعات الزئية الكثيرة التي تعج الرواية والتي تصب كلها القضية الإشكالية : ما الطريق الصحيح لإعادة توزيع الوقف بالعدل ؟ وكان قدري و سام أحد أطراف هذه الدائرة الصراعية «وقال أبوه - أدهم - اذهب يا سام إلى جدك مصحوبا بالسلامة. فالتفت قدري إلى أبيه يسأله مدة و د: وأنا ألسنت ابنك مثله؟؟

- لا تتكلم كما يتكلم إدريس يا قدري. إنك ابن مثله بلا أد ريب، ولا لوم علي فلست أنا الداعي (...)، فصاح قدري نق: أي ظلم هذا ؟؟ إذا أثره علي ؟؟ إنه يعرف كما يعرفه فلماذا تنص بالدعاء»⁽²²⁾

حافظ ييب فوظ على أهم موتيفات الأسطورة وهي: الغة، حب التسلط، القربان، القتل ... إلى و يغير سوى الأواء و دوافع الحركة التي تماشى وانطق العام للرواية.

تسرد رواية "نزيف الجر" حياة الطوارق الصحراء، وترصد تعاريج مسام عيشية، ودقائق يومياتهم المتوزعة بين صيد الغزلان ومطاردة الودان، و خضم هذه الأحداث صر قابيل الروائي حضورا لفظيا ووظيفيا، وتشكلت شخصيته من خلال الموتيفات التالية:

«- طفل مشؤوم /منحوس: إذ مات والده وهو بطن أمه التي توفيت بدورها بعد أسبوع فتبنته خالته وزوجها فماتا عطشا الصحراء.
- طفل فاس / مربع: يزرع الوفا نفوس أقرانه، ويفرض نفسه قوة عليا، وشخصية سلطوية مستبدة.

- رضيع الدم: تروي غزالة لصوبا كيف أن أمها ضحت بنفسها من أجل الرضيع فايل حتى لا يوت عطشا الصحراء.

- آكل وم البشر: يقول عنه الدرويش بلهجة غامضة " فم هذا مخلوق دودة عله يأكل نفسه إذا قد شخصا يأكله" (23)

قتل فايل أخاه هايل / الراعي أسوف لأنه رفض أن يدلّه على مكان الودان، ومثل هذه المواجهة العنيفة بين الأخوين الوجه الآخر للمواجهة بين نظام معيشي تلف: الرعي/ أسوف، والصيد / فايل، يصير كل منهما على فرض وجوده فقتل فايل أخاه ليس لأنه خسر قربانه مع السماء بل لأنه سيخسر القربان مع نفسه ومع الكبار الأمريكي جون باركر.

كانت الملقبة الدموية الثانية سلسلة الإخوة الأعداء هي مواجهة فايل أخته الغزالة، ابتدأت المواجهة بالتردد وانتهت بالغدر والإجرام «اندهش كيف يطلق النار عليها، نسي البندقية أياها، نسي أنه جاء رحلة صيد، نسي أنه فايل ابن آدم المبول على اللحم (...) ولكن هل كانت تلك غزالة حقا؟ وهل كان هو فايل حقا؟» (الرواية، ص 92) ولكن سرعان ما تتبدد الدهشة وظلمات التأمل لتليها مرة واللاعقاب « تلك الليلة يقتل فايل بن آدم أخته الغزالة فقط، ولكنه أكل منها أيضا» (الرواية، ص 100).

تطرح هذه المواجهة الدرامية علاقة غامضة متكافئة بين طرفين متناقضين، تلك الأول القوة، الغدر وشهوة الإجرام، ويتسلح الثا بالبطية والسذاجة، سلاحه هو "الن يشيع آدم إلا التراب".

تشارك الغزالة مع أسوف موتيفات كثيرة تسمح بأن يسدا معا شخصية هايل، فكلاهما يتسم بالبطية، وروح التضحية والعجز وحب الاعتزال، كان أسوف رجلا منعزلا، ماور أنيسا، ولا يعرف مع النقود، ويعاشر امرأة، ومل سلاحا، يعيش الملاء، وقد عافت نفسه أكل الميوان، وبعبارة أخرى كان ط حياته أقرب إلى معيشة الميوانات العشبية، وهذا ما يعطي نفسه آخر للصراع الأخوي، إنه

سيد للمواجهة العنيفة بـ الطبيعة / هابيل وا ضارة / قابيل ولا أدلّ على ذلك من الصلة الوثيقة بـ قابيل والكاب الأمريكي جون باركر الذي زوده بآلات تنعت مرارا تضاعف السرد بأآلات شيطانية وهي البندقية، وسيارة أندروفر وا برطوش، تلك هي ا ضارة اـ جلبها جون باركر لقابيل ليسوغ له قتل أخيه أسوف الراعي.

ا - اة:

حظيت أسطورة قابيل باهتمام خاص الأدب العر وخاصة عند الشعراء ا معاصرين، إذ وظّفوها إطار موضوعها العام وهو "الإخوة الأعداء" مضاف عليها دلالات سياسية خاصة، تترجم حال الواقع العر الذي م بانكسارات متتالية أها فشل المشروع الاشتراكي العر قيق أهم مبادئه وهو الكفاية الإنتاج والعدالة التوزيع « التهاون قضية فلسط ا تلاشت ب نزاعات فردية، إجهاض اولات التوحد العر إذ فشل مشروع الوحدة بـ مصر وسوريا عام 1958 م فشل مشروع الوحدة الثلاثية بـ مصر وسوريا والعراق عام 1963 م، إذ فضل ا ميع أن لا يتحقّق ائيا على أن يصحي أحدهم بقيادة الأمة أوقيادة حب ما»⁽²⁴⁾ فكان من الطبيعي أن يلجأ الأدباء العرب إ أسطورة قابيل ا تعبر تعب ا فنيا موقفا عن موقف إيديولوجي رافض ذا الراهن ا تصدع والعروة انفصمة بـ العرب قيادات وشعوبا، و در الإشارة إ أن هذه اواقف الرافضة للوضع القائم وإن بدت معللة تاريخيا لدى شعرائنا فإا تعكس ا قيقة موافف شكلية يكتفي فيها الأديب العر بالتنديد والاستنكار وأخفق غالب الأحيان أن يستلهم أبعادها أوبعيد فراء ا رؤيوبا وهذا ما جعل أغلبهم يقتنع بأن الشر الراهن هو نتيجة حتمية لتراكمات من الأخطاء الفطرية وا توارثة.

لا كن أن تكون هذه النتيجة حكما مطلقا، لأننا وجدنا نصوصا استنطقت أسطورة قابيل قلب تناقضا ا ودراميتها واحتوائها على الثنائيات الضدية فكان قابيل بؤرة الصراع بـ الدم والرحم، الشك واليق ، القبول والرفض، ا رم والصحية، وهذا ما جعله شخصية مأساوية تت الإشفاق وا وف أكثر من الاستهجان والإنكار.

أوامش:

- 1- قصة قابيل وهابيل www.history.al-islam.com
- 2- الكتاب اقدس: العهد القد ، إصحاح التكوين، دار الكتاب اقدس، مصر، 1984، ص16.
- 3-4- علي بن جهم: الديوان، فقيق خليل مردم بك، منشورات دار الآفاق اديدة، ب و ت، د ت، ص157-158.
- 5- أبو العلاء اعرى: اللزوميات، دار ايل ب و ت، دت، ص220.
- 6- السياب: الديوان (الأعمال الكاملة)، دار العودة، ب و ت، ص366.
- 7- السياب: الديوان (الأعمال الكاملة)، ص357.
- 8- السياب: الديوان (الأعمال الكاملة)، ص280.
- 9- السياب: الديوان (الأعمال الكاملة)، ص150.
- 10- السياب: الديوان (الأعمال الكاملة)، ص133.
- 11- السياب: الديوان (الأعمال الكاملة)، ص367.
- 12- عبد الكر السبعوي: ثلاث فصائد لفلسط ، من "آداب"، يناير 1966 م، ص33، نقلا عن علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية الشعر العر ا عاصر، دار الفكر العر ، ط1، القاهرة، 1997 م، ص112.
- 13-14- عبد الوهاب زاهدة : قابيل النفطي، www.geocities.com.
- 15- صلاح التكمه جي: قابيل يفتك بعز العراق www.ahal-irak.com.
- 16-17- أمل دنقل: الوصايا العشر www.sudanonline.com.
- 18- شاذل طاقة: قابيل الدلمحاجه، من ديوان مات الليل، نقلا عن علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية الشعر العر ا عاصر، ص113.
- 19- أ د مطر: الفتنة اللقيطة، www.ahmedmatar.com.
- 20- د / جابر قميحة: على هؤلاء بشعري بكيت www.ashabmisr.com.
- 21- صلاح السودا : أخي قابيل، www.sudanonline.com.
- 22- يب فوط: أولاد حارتنا، دار الآداب، ط3، ب و ت، 1976م، ص83-84.
- 23- إبراهيم الكو : نزيف ا جر، تاسيلي للنشر والإعلام، دار التنوير للطباعة والنشر، ط3، لبنان، 1992م، ص95.
- 24- آمنة بلعلی: لميات مشروع البعث والانكسار الشعر العر ا عاصر، ديوان اطبوعات اامعية، ا زائر، د ت، ص35.